

حجة الإسلام الغزالي وأطواره الفكرية

بقلم

د. عرفات كرم ستوني

arafat.stuni@soranu.com

2013

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إن الحديث عن الغزالي حديث عن مدرسة كلامية فكرية عريقة، ألا وهي المدرسة الإشعرية، وبما أننا لن نتطرق إلى تلك المدرسة، لأن مجرد الحديث عنها سيجرنا إلى زوايا أخرى، وهذا ليس غرضنا وهدفنا من هذا البحث، لأننا سنركز هنا على جانب واحد من جوانب الغزالي العديدة، وهو التطور الفكري في مسيرته العويصة والشاقة، وهذه الزاوية من مسيرته استوقفني كثيرا، ودفعني إلى كتابة هذه الأسطر لكشف بعض الملابسات حول هذه الأطوار التي مر بها، لا إخال نفسي

بحاجة إلى التعريف بالغزالي¹، فهو معروف من قبل مادحيه وقادحيه، وهذا يعني أن الغزالي شخصية مثيرة للجدل، لأنه ترك وراءه تراثاً ثرا متنوعاً، حيث ألف في فنون عديدة، بدأ بأصول الفقه (المنحول في الأصول)²، (المستصفي من علم الأصول)، وصنف في علم الكلام (إلجام العوام عن علم الكلام)، والعقائد (الإقتصاد في الاعتقاد) والأديان والمذاهب والفرق (القول الجميل في الرد على من غير الإنجيل)، (فضائح الباطنية) والفلسفة (مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة) وعلم الجدل (المنتحل من علم الجدل) والرقائق (إحياء علوم الدين)، (منهاج العابدين) والمنطق (محك النظر في المنطق، معيار العلم في فن المنطق) والفقه (الوجيز في الفقه) والتصوف (المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال)، فقد كان بحق موسوعياً، ألف في كل فن كتاباً، يقول عن نفسه: " ولم أزل في عنفوان شبابي - منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين - أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للنتبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته"³.

ولا جرم أن تراثه الفكري المتنوع والثر ترك آثاراً جلية لمن بعده، فلا يفتأ العلماء قديماً وحديثاً يناقشون أفكاره وتصوراته ونظرياته، نقداً وتحليلاً وتفكيكا وتحقيقاً ودراسة وما إلى ذلك، وما أكثر الدراسات والكتب والبحوث والمقالات حوله، فقد امتلأت المكتبات بتراثه وما كتب عنه، فما من زاوية إلا وتجدها قد تم تناولها ودراستها وتحقيقها من قبل الباحثين، وهذه الزاوية التي أتناولها ألفيتها غير واضحة المعالم، وهي بحاجة إلى إيضاحات وتحليلات وتعليقات، وسيوضح ذلك في محله.

أطواره الفكرية

بدأ الغزالي حياته بطلب العلم كبقية الناس، إلا أن تلهفه للعلم وشوقه للمعرفة وبحثه المستمر وقراءته الشديدة لكتب العلماء ومصنفاتهم، كل ذلك أوصله إلى

¹ الغزالي، هو محمد بن محمد أبو حامد الغزالي الطوسي ولد سنة (450هـ)، وتوفي سنة (505هـ)، انظر: ترجمته مفصلاً: ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي (الحيزة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط2، 1992م) 191/6 وما بعدها. ابن عساكر: تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1404هـ) ص291 وما بعدها. ص291.

² لما ألف الغزالي هذا الكتاب في عنفوان شبابه، قال شيخه الجويني إمام الحرمين: " دفنتني وأنا حي، هلا صبرت حتى أموت، وأراد أن كتابك قد غطى على كتابي". ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (بيروت، دار صادر، ط1، 1358هـ) 168/9.

³ الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق: محمود بيجو (دمشق، دار التقوى، د.ط.ت) ص30-31.

مصاف العلماء وهو لا يزال شابا يافعا، يقول عن نفسه: " وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديني، من أول أمري، وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعها في جبلي لا باختيارى وحيلى، وحتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا"⁴.

وكاد يسبق شيوخه، بل إننا نملك أدلة أنه سبق شيخه أبا المعالي الجويني في كثير من الفنون والعلوم، ذكر ابن عساكر عن عبد الغفار الفارسي أن الجويني مع: " علو درجته، وسمو عبارته، وسرعة جريه في النطق والكلام لا يصغي نظرة إلى الغزالي سترا لأناقته عليه في سرعة العبارة، وقوة الطبع، ولا يطيب له تصديه للتصانيف، وإن كان متخرجا به منتسبا إليه كما لا يخفي من طبع البشر، ولكنه يظهر التبجح به، والاعتداد بمكانه ظاهرا خلاف ما يضمرة"⁵.

تفنن الغزالي في طلب العلوم، وأراد أن يكون لنفسه ثقافة عامة، ولذلك نجد ثقافته المتنوعة الثرة في مختلف الفنون، وأول محاولة بدأ بها الغزالي بناء قواعد أساسية، وأصول عامة لفهم أصول الفقه، لأن بها يمكن أن نفهم الفقه على حقيقته، وهذا ما نجده في كتابه (المنحول في الأصول) ولهذا يختلف هذا الكتاب عن كتابه الآخر الشهير (المستصفي من علم الأصول) فالأول بداية أصول الفقه أو نقول للناشئة أو المبتدئين، والأخير نهاية أصول الفقه، فهو أشهر من السابق، لأنه ألف المنحول قبل المستصفي حسب الترتيب الزمني للدكتور عبد الرحمن بدوي⁶، ولا جرم أن الغزالي لا يعد هذه المرحلة من مراحل تطوره الفكري، لذلك لم يتحدث عن هذه المرحلة في كتابه (المنقذ من الضلال)، والذي يبدو لي أن هذه المرحلة لا بد أن تحسب لأنها في تصورنا تعد مرحلة فكرية، وإن كان الغزالي لم يعدها، لأن أصول الفقه في رأي كثير من الباحثين من أهم الموضوعات الفلسفية⁷، ولكن يبدو أن سبب ذلك يرتد إلى كون الغزالي لم يأت بجديد في هذه المرحلة، حيث كان مقلدا لشيخه الجويني⁸، ومعولا على كتابه المعروف (البرهان في أصول الفقه)⁹.

⁴ المصدر السابق ص 31.

⁵ انظر: ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص292. و ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى 205/6.

⁶ عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة (منشورات ذوي القربى، ط1، 1427هـ) 85/2.

⁷ مصطفى عبد الرزاق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د.طبت).

⁸ ابن تيمية الحراني: بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد، تحقيق: موسى بن سليمان الدويش، (د. م: مكتبة العلوم والحكم، ط1، 1408هـ، 1988م) ص287.

⁹ يبدو أن الغزالي لم يكن وفيًا لشيخه، ولم يكن سلوكه سلوك التلميذ أمام أستاذه، بل كان أحيانا يرى نفسه أنه أفضل من الجويني، ذكر ابن السبكي أن الجويني يوما قال للغزالي: " يا فقيه، فرأى في وجهه التغير، كأنه استقل هذه اللفظة على نفسه، فقال له، افتح هذا البيت، ففتح مكانا وجده مملوءا بالكتب، فقال له: ما قيل لي يا فقيه حتى أتيت على هذه الكتب كلها" انظر: ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى 185/5. مع أن الجويني كان يثني على تلامذته، وخاصة الغزالي الذي وصفه بأفضل وصف مقارنة بأصحابه: " الغزالي بحر مغدق وإكياهراسي أسد مخرق والخوافي نار تحرق" انظر: ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى 87/6.

بالعودة إلى كتاب الغزالي (المنقذ من الضلال) يتجلى تطوره الفكري والمنهجي، حيث أشار بصريح العبارة إلى بداية مسيرته الفكرية، مبتدئاً بعلم الكلام (العقائد والمذاهب والفرق والأديان) حيث يقول: " فقد سألتني أيها الأخ في الدين، أن أبتئ إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق، وما استجرات عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد، إلى يفاع الاستبصار، وما استفدته، أولاً من علم الكلام"¹⁰.

أولاً) مرحلة علم الكلام

قال الغزالي: " ثم إنني ابتدأت بعلم الكلام، فحصلته، وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علماً وافياً بمقصوده، غير واف بمقصودي، وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة"¹¹.

طالع الغزالي كتباً عديدة، وفهمها وأدرك حقيقتها، وألف كتباً عديدة في هذا المجال، لكنه لم يجد في علم الكلام ما يشفي عليه، ويروي غليله، بل زاده ضنكا وضيقاً في مسيرته الفكرية الرحبة، ومن جملة ما ألفه (الاقتصاد في الاعتقاد). وما أكثر العلماء الذين ذموا علم الكلام في نهاية عمرهم، إلا أن الفرق بينهم وبين الغزالي أن الأخير لم يقتنع به طريقاً نهائياً للطمأنينة والراحة النفسية والبال، فكان يبحث عن طريق يضع حداً لرحلته الشاقة والطويلة، فما كان من علم الكلام إلا أن زاده رهقاً ونصباً، كأنما يصعد في السماء، ولهذا لم يذم منهج المتكلمين وطريقتهم لأنهم قصدوا بذلك حفظ عقيدة أهل السنة، لكنه لم يرض لنفسه طريقاً، ولهذا قال: " فصادفته علماً وافياً بمقصوده، غير واف بمقصودي". لأن مقصوده الوصول إلى بر الأمان، وهي حالة شخصية نفسانية هادئة مطمئنة.

ولهذا قال في نهاية المطاف: " والغرض الآن: حكاية حالي، لا الإنكار على من استشفى به، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء، وكم من دواء ينتفع به مريض، ويستضر به آخر"¹².

في مسألة علم الكلام يرى شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني (ت728هـ) أن طريقة الغزالي هي طريقة شيخه الجويني (ت478هـ)، لأن الجويني - كما يرى كثير من الباحثين- هو أول من فتح باب التأويل على مصراعيه، متأثراً بالمعتزلة في التأويل، ولهذا لم نجد قبل الجويني أحداً من أعمدة الأشاعرة من أول الصفات الإلهية، وخاصة الصفات الخبرية الوجودية، أمثال أبي بكر الباقلاني (ت404هـ)¹³، وابن

¹⁰ الغزالي: المنقذ من الضلال ص29.

¹¹ الغزالي: المنقذ من الضلال ص39.

¹² المصدر السابق ص40.

¹³ الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الخلاف فيه.

فورك الأصبهاني (ت406هـ)¹⁴، وعبد القاهر البغدادي (ت429هـ)¹⁵، وأبو بكر البيهقي (ت458هـ)¹⁶، وأبو المظفر الإسفرايني (ت471هـ)¹⁷. ولهذا نجد الجيل الذي يلي الجويني غارقاً في تأويل الصفات الإلهية وخاصة (الخبرية الوجودية) ابتداءً من أشهر تلامذته كالغزالي، ومن بعده مثل الشهرستاني (ت548هـ)¹⁸، والرازي (ت606هـ)¹⁹، والأمدي (ت631هـ)²⁰، والبيضاوي (ت685هـ)²¹، والأصفهاني (ت749هـ)²²، والإيجي (ت756هـ)²³، والجرجاني (ت816هـ)²⁴، والسنوسي (ت885هـ)²⁵، واللقاني (ت1046هـ)²⁶، والبيجوري (ت1277هـ)²⁷ وغيرهم.

وكثير من هؤلاء الأعلام ذموا علم الكلام في نهاية عمرهم، ولم يصلوا إلى نتيجة مرجوة في الجانب الفكري والعقدي، ويبدو لي أن ذمهم ليس في كونه علماً لا منفعة فيه، فلو كان ذلك كذلك لكان ينبغي أن نعد كتاب الإمام أحمد بن حنبل في رده على الجهمية والزنادقة مذموماً، فهو كتاب كلامي، مع أن أحمد كان من أبغض الناس لعلم الكلام، يقول ابن تيمية الحراني: "فإن أحمد لم ينه عن نظر في دليل عقلي صحيح يفضي إلى المطلوب، بل في كلامه في أصول الدين من الرد على الجهمية وغيرهم من الاحتجاج بالأدلة العقلية على فساد قول المخالفين للسنة، ما هو معروف في كتبه وعند أصحابه"²⁸. لذا ذموا علم الكلام المجرد عن القرآن والسنة، حيث خاض فيه قوم تجردوا عن كل ما له صلة بالنصوص الدينية، وكثير من مؤلفات علماء السلف تشبه كتب علم الكلام، ولم يذمها أحد، لأنها لم تتجرد عن النصوص الدينية، وقد عرف ابن خلدون علم الكلام بقوله: "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة"²⁹.

¹⁴ مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري.

¹⁵ كتاب أصول الدين.

¹⁶ الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة.

¹⁷ التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين.

¹⁸ نهاية الأقدام في علم الكلام.

¹⁹ الأربعين في أصول الدين.

²⁰ غاية المرام في علم الكلام.

²¹ طوابع الأنوار.

²² شرح مطالع الأنظار على طوابع الأنوار.

²³ المواقف في علم الكلام.

²⁴ شرح المواقف في علم الكلام للإيجي.

²⁵ أم البراهين.

²⁶ جوهرة التوحيد.

²⁷ تحفة المرید في شرح جوهرة التوحيد.

²⁸ ابن تيمية الحراني: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم (السعودية، مكتبة ابن تيمية، ط1، 1401هـ، 1981هـ) 153/7-154.

²⁹ ابن خلدون: المقدمة: تحقيق درويش الجويدي (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1416هـ، 1996م) 458/1.

وعليه، فإن الغزالي لم يتخل عن علم الكلام لكونه مذموماً، بل لأنه لم يف بمقصوده، ولم يشف حالته النفسية، لأنه في آخر عمره، ألف رسالة في العلم نفسه، مشيراً إلى حقيقة علمية مهمة، وهي كون هذا العلم علم الخواص، وليس مناسباً للعوام، ولو كان مذموماً كما يدعى لما فرق بين ذينك الصنفين، وهذا جلي من خلال عنوان الرسالة (إلجام العوام عن علم الكلام).

ثانياً) مرحلة الفلسفة

تحدث الغزالي عن هذه المرحلة قائلاً: "ثم إنني ابتدأت - بعد الفراغ من علم الكلام - بعلم الفلسفة، وعلمت يقيناً: أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم، من غوره وغائله، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً"³⁰.

بعد الغزالي حسب رأي ابن خلدون (ت هـ) أول من خلط بين علم الكلام والفلسفة³¹، ولهذا قال عن نفسه: "ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمة إلى ذلك، ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم - حيث اشتغلوا بالرد عليهم - إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها بعامل عامي، فضلاً عن يدعي دقائق العلم، فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والإطلاع على كنه رمى في عمية"³².

وما قام به الغزالي كان بحق جهداً عظيماً ومهمة صعبة، لأنه بدأ أولاً بدراسة الفلسفة، وهذه كانت أول تجربة من متكلم يخوض غمار الفلسفة وموضوعاتها ومفرداتها، من غير أستاذ ولا شيخ ولا فيلسوف، بل عول على نفسه ومطالعه ودراسته الشخصية، كل ذلك في أوقات فراغه، لأنه كان يؤلف في الوقت نفسه رسائل في العلوم الشرعية، وكان له في بغداد زهاء ثلاثمائة طالب علم يدرسه، ولكن مع ذلك استطاع الغزالي أن يفهم الفلسفة ويفقهها على حقيقتها في زمن قليل وهو أقل من سنتين، يقول وهو يتحدث عن هذه التجربة العويصة: "فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية، وأنا ممنو بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد. فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلطة، على منتهى علومهم في أقل من سنتين، ثم لم أزل أوظب على التفكير فيه بعد فهمه قريباً من سنة أعاوده وأرده وأتفقد غوائله وأغواره، حتى اطلعت على ما فيه من خداع، وتلبيس وتحقيق وتخويل، واطلاعاً لم أشك فيه"³³.

³⁰ الغزالي: المنقذ من الضلال ص 41.

³¹ ابن خلدون: المقدمة 466/1.

³² الغزالي: المنقذ من الضلال ص 41.

³³ الغزالي: المنقذ من الضلال ص 41-42.

وقد بدأ الغزالي بدراسة الفلسفة أولاً، لأنه يعتقد من الناحية المنهجية أنه لا يمكن نقد الفلسفة من غير فهم لها ولمفرداتها وأبوابها وأصنافها وأقسامها وأبوابها، حيث قال: " فإن الوقوف على فساد المذاهب قبل الإحاطة بمداركها محال، بل هو رمي في العماية والضلال"³⁴.

بين الغزالي أن علوم الفلاسفة أربعة أقسام: الرياضيات والمنطقيات والطبيعات والإلهيات، ثم بدأ بشرح كل علم على حدة، وهذا الكتاب أعني (مقاصد الفلاسفة) ألفه تمهيدا لكتاب آخر أهم منه، وهو الشروع في نقض ما عند الفلاسفة، وقد أسمى كتابه (تهافت الفلاسفة).

ثم بين الغزالي أن الفلاسفة – على كثرة فرقهم، واختلاف مذاهبهم- ينقسمون إلى ثلاثة أقسام، الدهريون والطبيعيون، والإلهيون³⁵.

الصنف الأول: الدهريون، وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر، العالم القادر، وزعموا: أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه، وبلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة.

والصنف الثاني: الطبيعيون، وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات. فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى، وبدائع حكمته، مما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم... إلا أن هؤلاء ذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود فجددوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار، والحشر والنشر، والقيامة، والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب، فانحل عنهم اللجام، وانهمكوا إنهماك الأنعام. وهؤلاء أيضاً زنادقة، لأن أصل الإيمان هو: الإيمان بالله واليوم الآخر، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر، وإن آمنوا بالله وصفاته.

والصنف الثالث: الإلهيون، وهم المتأخرون منهم مثل سقراط وهو أستاذ أفلاطون وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس وأرسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق، وهدب لهم العلوم، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم، وهم بجملتهم، ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية، والطبيعية، وأوردوا في الكشف عن فضائهم ما أغنوا به غيرهم " وكفى الله المؤمنين القتال " بتقاتلهم. ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم، إلا أنه استبقى من رداذ كفرهم، وبدعتهم، بقايا لم يوفق للنزوع عنها"³⁶.

³⁴ الغزالي: مقاصد الفلاسفة، تحقيق: محمود بيجو (دمشق، مطبعة الصباح، ط1،

1320هـ، 2000م) ص10.

³⁵ الغزالي: المنقذ من الضلال ص43.

³⁶ الغزالي: المنقذ من الضلال ص 43-44.

ثم أوضح الغزالي كيفية التعامل مع الفلسفة، فلا بد من تفكيكها وتقسيمها، فقسم يجب التكفير به، وقسم يجب التبديع به، وقسم لا يجب إنكاره، بل لا بد من تفصيله³⁷.

قال الغزالي: "وأما الإلهيات: ففيها أكثر أغاليطهم... ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبعة عشر. ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين صنفاً كتاب التهافت، أما المسائل الثلاث، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين وذلك في قولهم:

(1) إن الأجساد لا تحشر، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية، ولقد صدقوا في إثبات الروحانية: فإنها كائنة أيضاً، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية، وكفروا بالشرعية فيما نطقوا به.

(2) ومن ذلك قولهم: "إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات"، فهو أيضاً كفر صريح، بل الحق أنه: { لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ }³⁸.

(3) ومن ذلك قولهم: يقدم العالم وأزليته، ولم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل. وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات، وقولهم: إنه عليم بالذات، ولا يعلم زائد على الذات وما يجري مجراه، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك.

ولقد فصل الغزالي في كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة) هذه المسائل بصورة منهجية علمية، ورد على الفلاسفة تناقضاتهم وناقشهم مناقشة مستفيضة، وسأذكر اجمالاً هذه المسائل التي طرحها الغزالي في كتابه.

المسألة الأولى: مسألة في إبطال قولهم بقدم العالم.
المسألة الثانية: مسألة في إبطال قولهم في أبدية العالم والزمان والحركة.
المسألة الثالثة: في بيان تلبيسهم بقولهم إن الله فاعل العالم وصانعه وأن العالم صنعه وفعله.
المسألة الرابعة: مسألة في تعجيزهم عن إقامة الدليل على أن للعالم صانعاً وعلّة.

المسألة الخامسة: في تعجيزهم عن إقامة الدليل على استحالة إلهين.

المسألة السادسة: في إبطال مذهبهم في نفي الصفات.

المسألة السابعة: في إبطال قولهم: إن ذات الأول لا تنقسم بالجنس والفصل.

المسألة الثامنة: في إبطال قولهم: إن الأول موجود بسيط بلا ماهية.

المسألة التاسعة: في تعجيزهم عن بيان إثبات أن الأول ليس بجسم.

المسألة العاشرة: في بيان أن القول بالدهر ونفي الصانع لازم لهم.

المسألة الحادية عشرة: في تعجيزهم عن القول بأن الأول يعلم غيره..

المسألة الثانية عشرة: في تعجيزهم عن القول بأن الأول يعلم ذاته.

³⁷ المصدر السابق ص 45.

³⁸ سورة سبأ الآية (3).

المسألة الثالثة عشرة: في إبطال قولهم: إن الأول لا يعلم الجزئيات.
المسألة الرابعة عشرة: في إبطال قولهم: إن السماء حيوان متحرك بالإرادة.
المسألة الخامسة عشرة: في إبطال ما ذكروه من الفرض المحرك للسماء.
المسألة السادسة عشرة: في إبطال قولهم: إن نفوس السموات تعلم جميع
الجزئيات الحادثة في هذا العالم.
المسألة السابعة عشرة: في إبطال قولهم: باستحالة خرق العادات.
المسألة الثامنة عشرة: في إبطال قولهم: إن نفس الإنسان جوهر قائم بنفسه،
ليس بجسم ولا عرض.

المسألة التاسعة عشرة: في إبطال قولهم: باستحالة الفناء على النفوس البشرية.
المسألة العشرون: في إبطال إنكارهم لبعث الأجساد، مع التلذذ والتألم في
الجنة والنار بالذات والآلام الجسمانية³⁹.

أما فيما يخص محاولة ابن رشد(ت هـ) في الرد على الغزالي في كتابه(تهافت التهافت) فهي محاولة فلسفية أخرى، لها قيمتها العلمية والمعرفية، في هذا النطاق، فهو يحاول أن يذود عن الفلاسفة المشائين، وبالأخص الفلاسفة المسلمين من الذين كفرهم الغزالي أمثال ابن سينا(ت هـ) والفارابي(ت هـ)، في كونهم لم يقولوا بأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات، وأن الغزالي قد غلط عليهم، يقول ابن رشد(ت595هـ) مدافعا عنهم: "أنه تعالى يعلمها بعلم غير متجانس لعلمنا بها، وذلك أن علمنا بها، معلول للمعلوم به، فهو يحدث بحدوثه، ومتغير بتغيره، وعلم الله سبحانه بالوجود على مقابل هذا، فإنه علة للمعلوم الذي هو الموجود"⁴⁰. ومع علو كعب ابن رشد في هذا المجال، وعمقه الفلسفي، إلا أنني لا إخال الغزالي قد غلط عليهم، بعد طول دراسة وتمحيص وتفكير ومطالعة لكتيبهم ومناهجهم وأصولهم. ويرى الدكتور سليمان دنيا أن الذي جرى بين الغزالي وابن رشد تحول إلى سباب، وهذا لا يعد فلسفة، حيث قال: "إن السباب ليس فلسفة، ولا يصلح أن يكون لونا من ألوانها، حتى ولو على سبيل المجاز، ومع ذلك، ورغم ذلك، فقد وقع فيه هذان الفيلسوفان"⁴¹. ولهذا وصف ابن رشد الغزالي بأوصاف قاسية، قال في بداية مقدمته: "فإن الغرض في هذا القول، أن نبين مراتب الأقوال المثبتة، في كتاب التهافت لأبي حامد، في التصديق والإقناع، وقصور أكثرها عن رتبة اليقين والبرهان"⁴². ولنضرب على ذلك مثلا، حيث قال ابن رشد في المسألة الثانية عشرة في تعجيزهم عن إقامة الدليل على أن الأول يعرف ذاته: "فجميع ما تضمن هذا الفصل تمويه وتهافت من أبي حامد، فإننا لله وإنا إليه راجعون، على زلل العلماء ومسامحتهم لطلب حسن الذكر في أمثال هذه الأشياء"⁴³.

³⁹ الغزالي: تهافت الفلاسفة، تحقيق: محمود بيجو(دمشق، دار التقوى، ط1، 2006م) ص20.
⁴⁰ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال تحقيق د.محمد عمارة (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط3، 1986م) ص38-39.
⁴¹ ابن رشد: تهافت التهافت، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا (القاهرة، دار المعارف، ط1، 1964م) ص19.

⁴² المصدر السابق ص55.

⁴³ المصدر السابق ص688-689.

ثالثاً) مرحلة النزاع مع المخالفين

يقول الغزالي وهو يتحدث عن هذه المرحلة: "ثم إنني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزييف منه، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات"⁴⁴.

فبدأ بالرد على المذاهب والفرق والطوائف، وخاصة فرقة الباطنية، وقد ألف كتاباً حول فضائح الباطنية بناء على طلب من الخليفة المستظهر بالله⁴⁵، يقول الغزالي: "وكان قد نبغت نابغة التعليمية، وشاع بني الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق، فعنّ لي أن أبحث في مقالاتهم، لأطلع على ما في كنانتهم. ثم اتفق أن ورد علي أمر جازم من حضرة الخلافة، بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم... فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم"⁴⁶.

ولقد ذكر الغزالي في مقدمة كتابه (فضائح الباطنية) رغبة الخليفة المستظهر بالله في تأليف كتاب حول الباطنية، حيث يقول: "فإني لم أزل مدة المقام بمدينة السلام متشوقاً إلى أن أخدم المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية، ضاعف الله جلالها، ومد على طبقات الخلق ظلالها بتصنيف كتاب في علم الدين"⁴⁷.

ولقد ناقش الغزالي بعقله الناقد وفكره الثاقب أفكار الباطنية وفضحهم، كل ذلك بأسلوب علمي جدلي، حيث يذكر شبههم وبردها، مما دفع البعض إلى الاعتراض على منهجيته، ولقد تحدث عن ذلك قائلاً: "أنكر بعض أهل الحق مبالغتي في تقرير حجتهم، فقال: هذا سعي لهم، فإنهم كانوا يعجزون عن نصره مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها، وترتيبك إياها"⁴⁸. ولقد دافع الغزالي عن نفسه ضد المعترضين قائلاً: "وهذا الإنكار من وجه حق، فقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي رحمهما الله تصنيفه في الرد على المعتزلة، فقال الحارث: الرد على البدعة فرض، فقال أحمد: نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها، فيم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه، ولا يلتفت إلى الجواب أو ينظر في الجواب ولا يفهم كنهه؟ ثم بدأ بشرح قصد أحمد بن حنبل، لأن مثله - في تصور الغزالي - لا يمكن أن يرفض الرد على المخالفين وخاصة المعتزلة، ولهذا قال الغزالي: "وما ذكره أحمد بن حنبل حق، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر فأما إذا انتشرت، فالجواب

⁴⁴ الغزالي: المنقذ من الضلال ص56.

⁴⁵ هو أبو العباس أحمد بن المقفدي بأمر الله عبد الله بن الأمير محمد العباسي المستظهر بالله توفي سنة 512.

⁴⁶ الغزالي: المنقذ من الضلال ص56.

⁴⁷ الغزالي: فضائح الباطنية، تحقيق عبد الرحمن بدوي (الكويت، مؤسسة دار الكتب الثقافية) ص4.

⁴⁸ الغزالي: المنقذ من الضلال ص56-57.

عنها واجب ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية⁴⁹. وهذه ملاحظة مهمة من الغزالي تنبئ عن عقلية ناقدة، وفكر نير.

ولا يعني هذا أن الغزالي في هذه المرحلة اقتصر في الرد على الباطنية، بل ذكرهم كمثال، وسبب تركيزه عليهم يرتد إلى أن الباطنية في وقته كانت مصدر قلق وتهديد للخلافة السنية، في عهد الخليفة المستظهر بالله.

ومع كون الغزالي على مذهب الأشعري في العقائد، إلا أنه انتقد بشدة المتعصبين للمذهب، والمقلدة الذين يرون أنفسهم أصحاب الحق المطلق، وهذه كانت ثقافة تلك الحقبة، حيث كان التعصب المذهبي العقدي على أوجه، بحيث يتصور أصحاب كل مذهب أنه على حق، وأن مخالفه أو خصمه - كما يطلو لهم هذا اللفظ - على باطل وضلالة، والأدهى من ذلك التعنيف والنكير على المخالفين للإمام أي إمام المذهب، بل وصل الأمر إلى درجة التكفير بحق المخالفين، ولقد ركز الغزالي على هذه النقطة كثيرا، لأنها كانت تؤرق فكره، يقول الغزالي: "فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعري أو مذهب المعتزلي أو مذهب الحنبلي أو غيرهم، فاعلم أنه غر بليد، قد قيده التقليد، فهو أعمى من العميان، فلا تضيع بإصلاحه الزمان"⁵⁰.

ثم بدأ الغزالي بمخاطبة أصحابه من الذين ينتمون إلى المذهب الأشعري، فقال: "ولعل صاحبك يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعري، ويزعم أن مخالفته في كل ورد وصدر كفر من الكفر الجلي، فاسأله من أين ثبت له أن كون الحق وقفا عليه، حتى قضى بكفر الباقلاني إذ خالفه في صفة البقاء لله تعالى"⁵¹.

ثم شن الغزالي هجوما عنيفا على هذه الشذمة من أهل التقليد قائلا: "وشرط المقلد أن يسكت ويُسكت عنه، لأنه قاصر عن سلوك طريق الحجاج، ولو كان أهلا له لكان مستتبعا لا تابعا، وإماما لا مأموما، فإن خاض المقلد في المحاجة فذلك منه فضول، والمستغل به كضارب في حديد بارد، وطالب بصلاح الفاسد، وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر"⁵².

فالغزالي يعد كل من يجعل الحق وقفا على واحد من المتكلمين بعينه متناقضا، يقول: "ولعلك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفا على واحد من النظر بعينه، فهو أقرب إلى الكفر والتناقض"⁵³.

واستكمالا لما قام به الغزالي، وهو الرد على المقلدة في الجانب العقدي والفكري، يحاول في أحد أهم كتبه وهو (إحياء علوم الدين)⁵⁴ تقديم مشروع جديد

⁴⁹ المصدر السابق ص 56-57.

⁵⁰ الغزالي: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحقيق: محمود بيجو (دم.ط1، 1413هـ،

1993) ص 19-20.

⁵¹ المصدر السابق ص 20.

⁵² المصدر السابق ص 22.

⁵³ المصدر السابق ص 22.

⁵⁴ شرح هذا الكتاب السيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى الحنفي بعنوان (إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين)، واختصره ابن الجوزي في (منهاج القاصدين)، ثم اختصره ابن قدامة المقدسي، وكذا هذبه محمد جمال القاسمي بعنوان (تهذيب موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين).

وخطة جديدة، في الجانب الفقهي الشرعي، فهو يرى أن كتب الفقه المذهبية جافة الطبع، وفيها من المسائل الافتراضية التي لم تقع بعد، والآراء التي لسنا بحاجة إليها، فكل من يقرأ هذه الكتب لا يزداد إيمانا بقراءتها، بل تزيده تعقيدا وجفوة واضطرابا، لأنها مليئة بمسائل جزئية تفصيلية يحترار الإنسان أحيانا في بعض زواياها، فجاء الغزالي ليغير هذا المسار، وهذا المنهج الذي سلكه الفقهاء المقلدون، وهذا ما نلاحظه في عنوان كتابه (إحياء علوم الدين)، وكأن هذه العلوم ميتة، لا روح فيها، أشبه بالجنّة الهامدة، فجاء الغزالي لينفخ فيها روحا، وهذه الروح هي الجانب التربوي والأخلاقي والإيماني والزهدي (التصوفي)، لذلك نجده في هذا السفر الضخم، عرض المسائل الفقهية ومناقشتها مع ذكر الأدلة من الكتاب والسنة والآثار والأقوال، ثم بدأ بالحديث عن الجوانب الأخرى المتروكة عند الفقهاء، وذلك حتى يزداد القاريء إيمانا وتقوى وزهدا وتربية واطعانا وما إلى ذلك من الجوانب الإيمانية الهامة في حياتنا. يقول ابن خلدون: "وجمع الغزالي رحمة الله بين الأمرين - الفقه والتصوف - في كتاب الإحياء، فدون فيه أحكام الورع والاعتداء، ثم بين آداب القوم وسننهم، وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم، وصار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط"⁵⁵.

وقد تحدث الغزالي عن كتابه هذا قائلا: "فأما علم طريق الآخرة، وما درج عليه السلف الصالح، مما سماه الله سبحانه في كتابه فقها وحكمة وعلما وضياء ونورا وهداية ورشدا، فقد أصبح من بين الخلق مطويا، وصار نسيا منسيا، ولما كان هذا ثلما في الدين ملما وخطبا مدلهما، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما، إحياء لعلوم الدين، وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحا لمباهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين"⁵⁶.

هذا الكتاب الذي ألفه الغزالي اختلف الناس فيه اختلافا شديدا، يقول المازري: "فطائفة انتصرت وتعصبت لإشهاره، وطائفة حذرت منه ونفرت، وطائفة لكتبه أحرقت"⁵⁷. فالطائفة الأولى ينطبق عليهم قول أحدهم: "كاد الإحياء يكون قرأنا"⁵⁸، حيث اهتموا بهذا الكتاب اهتماما بالغا، وصوروه تصويرا رهيبا، بحيث أن جميع ما فيه حق وصحيح، وأبغضوا كل من ينقد هذا الكتاب، ونجد هذا التصرف الطائش من بعض الصوفية الغلاة. وفريق آخر تطرف كثيرا فصور الكتاب كأنه من تأليف شيطان رجيم، حيث أقدم بعضهم على إحراق نسخه، وهذه مصيبة عظيمة، فلنذكر ما قيل من قبل هذه الطائفة التي عنفت على الغزالي، يقول أبو بكر الطرطوشي: "شحن أبو حامد الإحياء بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم،

⁵⁵ ابن خلدون: المقدمة 369/1.

⁵⁶ الغزالي: إحياء علوم الدين، (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، د. ط. ت.).

⁵⁷ الذهبي: سير أعلام النبلاء 340/19.

⁵⁸ أحمد محمود صبحي: الأشاعرة (القاهرة، دار الكتب الجامعية، 1969م) ص 252، وقد نسب صبحي هذا القول إلى النووي، ولا إخال ذلك صحيحا عنه، فهو أعظم من أن يتفوه بمثل هذا الكلام الخطير.

فلا أعلم كتابا على بسيط الأرض أكثر كذبا منه"⁵⁹. وقد رد بعض العلماء على هذا المصنف، خذ مثلا (الكشف والإنباء عن كتاب الإحياء) للمازري، وكذلك كتاب (إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء) لابن الجوزي، وكتاب (إحياء ميت الأحياء في الرد على كتاب الإحياء) لأبي الحسن بن سكر.

والغزالي كان قليل البضاعة في علم الحديث، ولهذا امتلأ كتابه بالأحاديث الموضوعية والضعيفة، يقول عن نفسه: "وبضاعتي في علم الحديث مزجاة"⁶⁰. وقال الذهبي: "ولم يكن له علم بالآثار ولا خبرة بالسنن النبوية القاضية على العقل"⁶¹. وقد حقق الكتاب الحافظ العراقي الشهرزوري (ت806هـ) في كتابه الموسوم (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار)، وكلا الفريقين قد بالغ في الأمر، يقول ابن كثير (ت774هـ): "وصنف في هذه المدة - بقاءه في بيت المقدس - كتابه إحياء علوم الدين، وهو كتاب عجيب، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف وأعمال القلوب، لكن فيه أحاديث كثيرة غرائب ومنكرات وموضوعات، كما يوجد في غيره من كتب الفروع التي يستدل بها على الحلال والحرام، فالكتاب الموضوع للرقائق والترغيب والترهيب أسهل أمرا من غيره". ثم قال ابن كثير: "وقد شنع عليه أبو الفرج بن الجوزي، ثم ابن الصلاح، في ذلك تشنيعا كثيرا، وأراد المازري أن يحرق كتابه إحياء علوم الدين، وكذلك غيره من المغاربة، وقالوا: هذا كتاب إحياء علوم دينه، وأما ديننا فأحياء علومه كتاب الله وسنة رسوله"⁶².

أما ابن تيمية الحراني فكذابه يحاول وصف الكتاب بصورة علمية هادئة، ويحاول في الوقت نفسه بيان من أين استقى الغزالي مادته العلمية، مع اقتفاء منهج المقارنة، لذا يرى ابن تيمية الحراني أن كتابه الإحياء تبع لكتاب أبي طالب المكي (قوت القلوب) وكتاب المحاسبي (الرعاية) خاصة في مجال أعمال القلوب⁶³، ثم يرى ابن تيمية الحراني أن أبا طالب المكي أعلم بالحديث من الغزالي، وكلامه أجود تحقيقا، وأبعد عن البدعة، ثم قال عن الإحياء: "والإحياء فيه فوائد كثيرة، لكن فيه مواد مذمومة، فإن فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد -

⁵⁹ الذهبي: سير أعلام النبلاء تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط9، 1413هـ) 334/19.

⁶⁰ الغزالي: قانون التأويل، تحقيق: محمود بيجو (دم.ط1، 1413هـ، 1993م) ص30.

⁶¹ الذهبي: سير أعلام النبلاء 328/19.

⁶² ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1408 هـ. 1988م) 457/7.

⁶³ وقد ذكر الدكتور يوسف موسى في كتابه (فلسفة الأخلاق في الإسلام) أن الغزالي نقل كثيرا عن الراغب الأصفهاني، ولم يشر إلى كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة)، ومن الذين نقدوا الغزالي في هذه الزاوية الشيخ محمد زاهد الكوثري حيث ذكر أن الغزالي تبطن في إحياءه ونقل عن المحاسبي في كتبه، ولم يشر إليها، وخاصة كتابي المحاسبي (الرعاية) و(رسالة المسترشدين)، نقلا عن القرضاوي: الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط4، 1414هـ، 1994م) ص166، ولا ريب أن ابن تيمية الحراني قد كشف ذلك في عهده، وبين أن كثيرا من موضوعات الإحياء ليست للغزالي.

فإذا ذكرت معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدوا للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين⁶⁴.

رابعاً) مرحلة التصوف

وصل الغزالي إلى المرحلة التي كان يبحث عنها، فوجد ضالته في هذا العالم الخاص، عالم الوجدان والشعور والذوق والكشف والفناء والسكر، إنه عالم لا يصل إليه أحد بعلمه ومعرفة، بل بتخليه عن كل ما يعكر صفو الإيمان، ويكدر نقاء القلب، وصفاء الروح، عالم يتحلى فيه الصوفي أو الزاهد بالفضائل والطهارة والنقاء والصفاء، دعنا نستمع للغزالي ليحدثنا عن هذه المرحلة، يقول الغزالي: "ثم إنني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتخليته بذكر الله"⁶⁵.

وقد استقى الغزالي هذه التجربة بمطالعة كتب كل من أبي طالب المكي (قوت القلوب) والحارث المحاسبي، والجنيد البغدادي وأبي يزيد البسطامي والشبلي، ولهذا قال: "اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبديل الصفات"⁶⁶.

في هذه المرحلة وصل الغزالي إلى مرحلة الصمت والتهيه، بحيث لم يستطع أن يدرس كدأبه، ولهذا كان جل محاولته الخروج من بغداد خفية، فقد كان معروفا جدا، ولأن الخليفة لا يرضى برحيله، ولأن الشهرة كانت تقلقه دوماً، فهو يريد العيش في مكان لا يعرفه أحد، ولا يفسد عليه خلوته أحد، لأن هذه المرحلة بالنسبة له مرحلة مهمة، وهي مرحلة المرور بمسالك الصوفية، والارتقاء إلى الدرجات العليا، أو العروج الروحي والنفسي للوصول إلى غاية الغايات وهي الفناء، فكان في هذه المرحلة متردداً بين الرحيل والبقاء، حتى استقر الأمر به على الرحيل من بغداد إلى مكة المكرمة والشام وبيت المقدس، يقول الغزالي: "فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مئة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطيباً لقلوب المختلفة إلي، فكان لا ينطلق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة، حتى أورت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب"⁶⁷.

وليس هذا فحسب بل مرض الغزالي مرضاً شديداً، عجز الأطباء عن معالجته، فتوكل على ربه، حتى شفاه الله من ذلك، يقول وهو يتحدث عن نفسه: "

⁶⁴ ابن تيمية الحراني: الفتاوى الكبرى، دراسة وتحقيق: حسين محمد مخلوف (بيروت، دار المعرفة، 1398 هـ-1978 م) 344/4.

⁶⁵ الغزالي: المنقذ من الضلال ص 64.

⁶⁶ المصدر السابق ص 65.

⁶⁷ الغزالي: المنقذ من الضلال ص 67.

بطلت معه قوة الهضم ومراعاة الطعام والشراب، فكان لا ينسأغ لي ثريد، ولا تتهضم لي لقمة، وتعدى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم، ثم لما أحسست بعجزتي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب⁶⁸.

وأخيراً قرر الغزالي ترك بغداد، والرحيل إلى الشام، أقام به سنتين، وكان شغله الشاغل العزلة والخلو والريضة والمجاهدة، وتركية النفس، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، ثم كان يعتكف في مسجد دمشق، ويصعد المنارة طول النهار، ويغلق بابها على نفسه، ثم رحل إلى بيت المقدس، يدخل كل يوم الصخرة، ويغلق الباب على نفسه، ثم بعد هذه الفترة قرر الرحيل إلى الحجاز، لأداء فريضة الحج، وزيارة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وفي نهاية هذه الرحلة الطويلة والشاقة، وقع ما لم يكن يتوقع وقوعه، وهو الحنين إلى الوطن، فقال: "ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه، فأثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلو، وتصفية القلب للذكر"⁶⁹. وقد عاد الغزالي أخيراً إلى وطنه، ومسقط رأسه (طوس) وعاد مرة أخرى إلى التدريس في نظامية نيسابور بتكليف من فخر الملك.

ماذا حصد الغزالي في رحلته الطويلة هذه، والتي دامت عشر سنوات؟ يقول: "انكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به، إنني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق... ثم قال: "وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله"⁷⁰.

ولا ينسى الغزالي أن يشير إلى الصوفية الغلاة من أصحاب الحلول كالحلاج ووحدة الوجود كابن عربي، لأن هذه الطريقة مألها إلى الخروج عن الطريقة الصوفية السنية التي كان عليها الجنيد وأبي سليمان الداراني والبسطامي وغيرهم، ولهذا قال: "وعلى الجملة، ينتهي الأمر إلى قرب، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ. وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب المقصد الأسنى"⁷¹.

وللغزالي كلام طويل في الإحياء، وهو يتحدث عن صنفين من الصوفية قائلاً: "أحدهما الدعوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني

⁶⁸ المصدر السابق ص 67.

⁶⁹ المصدر السابق ص 68.

⁷⁰ الغزالي: المنقذ من الضلال ص 68-69.

⁷¹ المصدر السابق ص 70.

عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب فيقولون قيل لنا كذا وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله أنا الحق، وبما حكى عن أبي يزيد البسطامي أنه قال سبحاني وسبحاني، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام⁷². ثم قال: "فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره، وعظم في العوام ضرره، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة". ثم تحدث عن الصنف الثاني قائلاً: "الصنف الثاني من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل، إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلته إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره لقلته ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه"⁷².

خامساً) مرحلة الوسطية

من المتفق عليه بين الباحثين أن رسالة (إجم العوام عن علم الكلام) من آخر رسائل الغزالي العقديّة والكلامية⁷³، لقد ألف هذه الرسالة لكي يوضح العقيدة الصحيحة وهي عقيدة السلف، ويرد على المخالفين لها، من الرعاع والجهال والضلال حسب تعبيره، ونلاحظ من خلال عنوان الرسالة أن الغزالي يريد إبعاد العوام بقدر الاستطاع عن علم الكلام، والخوض في تفاصيلها، وخاصة مسألة الصفات الإلهية، وقد شبه علم الكلام بالبحر المغرق، وشبه العامي بالذي لا يحسن السباحة، وفي موضع آخر شبه علم الكلام بالأطعمة القوية، والعامي بالرضيع، فلا شك أن الرضيع سيموت بمجرد تناوله تلك الأطعمة، فالخوض في علم الكلام صناعة الرجال من النظار المتكلمين، يقول الغزالي: "وكذلك العوام إذا طلبوا بالسؤال عن هذه المعاني يجب زجرهم ومنعهم وضربهم بالدرّة كما كان يفعل عمر (رضي الله عنه) بكل من سأل عن الآيات المتشابهات، وكما فعله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الإنكار على قوم رآهم خاضوا في مسألة القدر، وسألوا عنه"⁷⁴.

ويركز الغزالي هنا على مسألة الصفات الإلهية، والفهم الصحيح لها، وذلك درءاً للتشبيه والتجسيم، لأنه مذهب الحشوية، يقول الغزالي: "فقد سألتني أرشدك الله

⁷² الغزالي: إحياء علوم الدين 36/1.

⁷³ لا ريب أن كتاب (منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين) هو آخر كتبه، لكنه ليس حول علم الكلام والعقائد، بل هو كتاب يتعلق بتزكية النفس، والتصوف والرقائق والزهد، وهو جلي من عنوانه.

⁷⁴ الغزالي: إجم العوام عن علم الكلام ضمن مجموعة رسائل الغزالي (بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1414هـ، 1994م) ص 47.

عن الأخبار الموهمة للتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية الضلال، حيث اعتقدوا في الله وصفاته ما يتعالى ويتقدس عنه"⁷⁵.

ولقد ركز الغزالي على الأحاديث الواردة في الصفات الخبرية الوجودية، لأن الأشاعرة المتأخرين متفقون على إثبات سبع صفات لله تعالى فقط، وهي (القدرة، العلم، الحياة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام)، أما الصفات الأخرى، وخاصة الخبرية الوجودية، فمتفقون على تأويلها، لأنها حسب تصورهم تقتضي التشبيه والتجسيم، وهذا مسلك من جاء بعد الجويني، وإلا فإن السابقين وأعني من كان قبل الجويني أثبتوا الصفات الخبرية، ولم يؤولوها البتة، لأن الجويني في تقديره هو أول من فتح باب التأويل في الصفات الخبرية الوجودية على مصراعيه في المدرسة الأشعرية.

وقد قسم الغزالي كتابه (إجماع العوام عن علم الكلام) إلى ثلاثة أبواب، باب في بيان حقيقة مذهب السلف في هذه الأخبار، وباب في البرهان على أن الحق فيه مذهب السلف، وأن من خالفهم فهو مبتدع، وباب في فصول متفرقة نافعة في هذا الفن، ثم بدأ بشرح الأبواب، قائلاً: "الباب الأول، في شرح اعتقاد السلف في هذه الأخبار، أعلم: أن الحق الصريح الذي لا مرأى فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف، أعني مذهب الصحابة والتابعين"⁷⁶.

ثم قال الغزالي: "حقيقة مذهب السلف، وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيه سبعة أمور: التقديس، ثم التصديق، ثم الاعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الإمساك، ثم الكف، ثم التسليم لأهل المعرفة"⁷⁷. وبدأ بشرح هذه الأمور، كل على حدة مع ضرب الأمثال.

لا ريب أن الغزالي في مسألة الصفات الإلهية (الخبرية الوجودية) زاد الأمر تعقيداً، لأنه لم يأت بجديد، بل كل ما جاء به ترديد لما قعده وأصله شيخه الجويني، فهو مع كونه ذم التقليد، لكنه هو نفسه وقع فيما حذر منه، والمدرسة الأشعرية بعد الجويني، وهو فتح الباب على مصراعيه، واقتدى به من جاء بعده من المتأخرين، وعلى رأسهم تلميذه الغزالي، ولسنا هنا بحاجة إلى مناقشة هذه المسألة، وذلك لأن علماء أجلاء تناولوها بالدراسة والتحليل، ولكننا سنذكر مثالا واحدا لفهم المسألة، ولكي يكون قاعدة عامة في التعامل مع جميع الصفات الإلهية الخبرية الوجودية منها والعقلية، ومثالنا حول صفة العلو والوقية التي احتلت مساحة فسيحة في أبواب علم الكلام، يرى الغزالي تبعاً لشيخه، ويرى الذين جاءوا بعده، أن إثبات هذه الصفة على ظاهرها من غير تأويل يقتضي التشبيه والتجسيم، وكلا الأمرين كفر بالإجماع حسب رأي الغزالي، لذا أول الغزالي هذه الصفة تأويلاً متعسفاً متكلفاً، أفرغ الصفة من معناها الحقيقي، ولننقل كلام الغزالي كاملاً، ونحلله ونفككه وننقده، يقول: "إذا سمع

⁷⁵ المصدر السابق ص 41.

⁷⁶ الغزالي: إجماع العوام عن علم الكلام ص 41-42.

⁷⁷ المصدر السابق ص 42.

لفظ الفوق، في قوله تعالى { وَهُوَ الْفَاحِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ }⁷⁸، وفي قوله تعالى { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ }⁷⁹، فليعلم أن الفوق اسم مشترك يطلق لمعنيين، أحدهما: نسبة جسم إلى جسم بأن يكون أحدهما أعلى، والآخر أسفل، يعني أن الأعلى من جانب رأس الأسفل، وقد يطلق لفوقية الرتبة، وبهذا المعنى يقال: الخليفة فوق السلطان، والسلطان فوق الوزير، وما يقال: العلم فوق العلم، والأول يستدعي جسما ينسب إلى جسم، والثاني، لا يستدعيه فليعتقد المؤمن قطعا أن الأول غير مراد، وأنه على الله تعالى محال، فإنه من لوازم الأجسام، أو لوازم أعراض الأجسام، وإذا عرف نفي هذا المحال، فلا عليه إن لم يعرف أنه لما أطلق وماذا أريد، فقس على ما ذكرناه ما لم نذكره⁸⁰.

ثم إن الغزالي يقطع في كون مذهب السلف هو الحق، ويجزم بأن: "أعرف الناس بمعاني كلامه، وأحراهم بالوقوف على كنهه، ودرك أسرارهم الذين شاهدوا الوحي والتنزيل، وعاصروه وصاحبوه، بل لازموه أثناء الليل والنهار، متشمرين لفهم معاني كلامه، وتلقيه بالقبول للعمل به". ثم قال الغزالي وهو يتحدث عن الصحابة: "إنهم في طول عصرهم إلى آخرهم أعمارهم ما دعوا الخلق إلى البحث والتفتيش والتفسير والتأويل والتعرض لمثل هذه الأمور، بل بالغوا في زجر من خاض فيه، وسأل عنه وتكلم به"⁸¹.

هنا وقع الغزالي في تناقض واضح، فمرة يشغل بالناس بتعقيداته وتقسيماته وتفريعاته الكلامية، ويؤول الآيات الواردة في الصفات الخبرية الوجودية، وفي مقابل ذلك يوصينا باقتفاء مذهب السلف، وأنه هو الحق المطلق، وأن التأويل مذموم، وأن السلف لم يتكلموا في هذه المسائل، بل نهوا عنها، وزجروا الخائضين فيها، ومن ثم يستشهد بمقولة مالك بن أنس الشهيرة عندما سأله رجل عن الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب"⁸².

وكلام مالك بن أنس ينقض جميع ما بناه الغزالي في كتابه هذا، لأن مالكا لم ينكر على الرجل لكونه سأل عن معنى الاستواء، بل أنكر عليه لأنه سأله عن كيفية الاستواء، فالمعنى معلوم، ولكن الكيفية مجهولة، ثم إن مالكا لم يفسر الاستواء تفسيراً كلامياً فلسفياً معقداً كما فسر الغزالي صفة العلو والفوقية، فما ذكره مالك قاعدة أساسية في كيفية التعامل مع الصفات الخبرية الوجودية، فالذي اتفق عليه السلف قاطبة أن الصفات الإلهية التي وردت في كتاب الله، وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا بد أن تثبت كما وردت، من غير تأويل ولا تشبيه، ولا تجسيم ولا تعطيل، فالمشبه يعبد صنما، والمعطل يعبد عدما، فالصحابه ومن تبعهم، لم يتناولوا مشكلة الصفات الإلهية بهذه الصورة التي نجدها عن المتكلمين، ولقد صدق الغزالي عندما

⁷⁸ سورة الأنعام الآية (6).

⁷⁹ سورة النحل الآية (50).

⁸⁰ الغزالي: إجماع العوام عن علم الكلام ص 44-45.

⁸¹ المصدر السابق ص 63-64.

⁸² المصدر السابق ص 46.

قال: " فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به أحاد الناس، وتستضر به الأكثرون"⁸³.

ولو عدنا لصفة العلو والفوقية التي اتخذناها مثالا لموضوعنا، لألفينا أن كثيرا من أعمدة المذهب الأشعري أثبتوا هذه الصفة وفق مذهب السلف، وحتى الفيلسوف الناقد ابن رشد عاب على الأشاعرة كيفية تعاملهم مع الصفات الخبرية الوجودية، ولهذا قال ابن رشد: " وأما هذه الصفة -الجهة والعلو- فلم يزل أهل الشريعة في أول الأمر يثبتونها لله سبحانه، حتى نفتها المعتزلة، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله"⁸⁴. ولعله يقصد بقوله: ومن اقتدى بقوله، الغزالي. ثم قال ابن رشد " فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل، وأنه الذي جاء به الشرع وانبنى عليه، وإن إبطال هذه القاعدة إبطال للشرائع"⁸⁵.

إن محاولة الغزالي هذه، وهي الوسطية⁸⁶ بين التشبيه والتمثيل والتجسيم - مذهب الحشوية- من جهة ، وبين التعطيل مذهب المعتزلة والجهمية- من جهة أخرى لم تؤت أكلها، بل زادت المسألة تعقيدا وصعوبة واضطرابا، فقد حاول الذود عن مذهب السلف، في كونه هو المذهب الحق الذي يجب اتباعه، لكنه في تقديري لم يقدم صورة واضحة له، وذلك يترد إلى أسباب عديدة، لعل من أهمها انشغاله بعلم الكلام والفلسفة والتصوف والرد على المخافين والمقلدة وما إلى ذلك، ولم تتح له الفرصة لدراسة الحديث النبوي، وكلما كان المرء قريبا من السنة كلما كان أقرب إلى فهم مذهب السلف، ولما كان الغزالي قليل البضاعة في الحديث النبوي، لم يكن فهمه دقيقا لمذهب السلف، ولهذا كان الباقلاني والبيهقي وابن فورك الأصبهاني على دراية بالحديث النبوي، فكان فهمهم لمذهب السلف أدق، ولهذا لم نجد عندهم هذه التأويلات المتكلفة والمتعسفة في الصفات الإلهية، بخلاف الغزالي ومن جاء بعده⁸⁷.

⁸³ الغزالي: إجماع العوام عن علم الكلام ص

⁸⁴ ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفة والبدع المضلة. تحقيق د.محمد عابد الجابري (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1998م) ص145.

⁸⁵ المصدر السابق ص145. ولقد ألف الذهبي كتابا حول هذه الصفة (العلو للعلي الغفاري)، وأثبت هذه الصفة بالأدلة العقلية والنقلية.

⁸⁶ ولقد رسخ الغزالي فلسفة الوسطية في رسالته (قانون التأويل) حيث ذكر فرقا عديدة تناولت هذه المسائل، ثم ذكر الفرقة المتوسطة الجامعة بين المعقول والمنقول، الجاعلة كل واحد منها أصلا مهما، المنكرة لتعارض العقل والشرع وكونه حقا، ومن كذب العقل فقد كذب الشرع، إذ بالعقل عرف صدق الشرع، ولولا صدق دليل العقل لما عرفنا الفرق بين النبي والمنتبي". انظر: الغزالي: قانون التأويل ص 19.

⁸⁷ وبسبب هذا التأويل الذي يزود عنه الغزالي دوما وقع في تفسيرات فاسدة أنكر عليه أكثر المحققين، خذ مثلا تفسيره الغريب لقصة إبراهيم (عليه السلام) لما رأى الكواكب، حيث فسرها بالحجب قائلا: " وليس المعني به هذه الأجسام المضيئة، فإنه كان يراها في الصغر، ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة، وليست واحدا، والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بإله، فمثل إبراهيم عليه السلام لا يغيره الكوكب الذي لا يغير السوادية، ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عز و جل، وهي على طريق السالكين". انظر: الغزالي: إحياء علوم الدين 407/3.

سادسا) مرحلة العودة إلى مذهب السلف

هذه هي نهاية رحلة الغزالي الطويلة، رحلة بدأها بعلم الكلام والفلسفة والتصوف والفقهاء وانتهى إلى ما انتهى إليه جل علماء الأشاعرة من المتكلمة، ألا وهو العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح، في التخلي عن التأويل والتفوق حول مصطلحات المتكلمين، والبدء باتباع طريقة المتقدمين أمثال الباقلاني والبيهقي وابن فورك الأصبهاني والبغدادي والإسفرائيني وغيرهم، وما استقر عليه شيخه الجويني في نهاية عمره.

من المعلوم أن أساطين المدرسة الأشعرية من النظائر والمتكلمة انتهى أمرهم إلى العودة إلى عقيدة العوام، وهي العقيدة البسيطة التي كان عليها السلف الصالح، والأمثلة كثيرة، فلو ذكرنا جميعها لكنا بحاجة إلى كتاب مستقل، خذ مثلا شيخ الغزالي أبو المعالي الجويني يحكي عنه أبو الفتح الصبري الفقيه قال: "دخلت على أبي المعالي في مرضه، فقال: "أشهدوا علي أنني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السلف، وإنني أموت على ما تموت عليه عجائز نيسابور"⁸⁸، وبعد الغزالي نجد الموقف نفسه من الرازي والآمدي وغيرهم، حيث يقول الرازي (ت606هـ): "لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفى عليلا، ولا تروى غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات {الرحمن على العرش استوى}⁸⁹. {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه}⁹⁰. وقرأ في النفي {ليس كمثله شيء}⁹¹، {ولا يحيطون به علما}⁹²، {هل تعلم سميا}⁹³. ومن جرب تجربتي عرف مثل معرفتي"⁹⁴. ويقول الآمدي (ت631هـ): "أمعنت النظر في الكلام، وما استفدت منه شيئا إلا ما عليه العوام"⁹⁵.

ويبدو أن الغزالي صرح في كتابه (المنقذ من الضلال) أنه وجد ضالته في التصوف، لكن هذا فيما يخص الجانب الروحي والنفسي والوجداني، في ترك ملذات الدنيا والجاه والمناصب والشهرة، لكن الجانب الفكري والعقلي والعقدي بقي خاويا على عرشه، لذا تبين له أن التصوف سد ثغرة من الثغرات العديدة في الإنسان، وملا فراغا واحدا، لم يكن كافيا، فالتصوف وحده غير كاف في هذه المسيرة، بل لا بد أن يضاف إلى ذلك الالتزام بما كان عليه السلف، من تصور واضح تجاه المسائل الكلامية العقديّة، فالتصوف أو - الزهد وفق استعمال السلف - كان جانبا عمليا تطبيقيا لبعض السلوكيات والأخلاقيات التي حث عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) في سنته، وقد كان كثير من الصحابة ملتزمين بها، وعلى رأسهم أبو ذر الغفاري (رضي

⁸⁸ ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى 191/5.

⁸⁹ سورة طه 5.

⁹⁰ سورة فاطر 10.

⁹¹ سورة الشورى 11.

⁹² سورة طه 110.

⁹³ سورة مريم 65.

⁹⁴ ابن تيمية الحراني: درء تعارض العقل والنقل 160/1.

⁹⁵ المصدر السابق 262/3.

الله عنه)، لذلك نجد الغزالي يعود إلى التدريس مرة أخرى، بعد أن تخلى عنها كلية، لأنه أدرك أن هذا الموقف غير سديد، فلقد كان السابقون يجمعون بين الأمرين، ولا تناقض بينهما.

يعد كتابه (منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين) آخر ما ألفه في حياته، فهو كتاب واضح من عنوانه، يتناول تزكية النفس، والعروج بها إلى مقامات العليين، أمثال الصوفية المعروفين، من الذين لم يتضرخوا بشطحات الصوفية وخرافاتهم وخرعبلاتهم، والتي تصل أحياناً إلى درجة الطول والاتحاد ووحدة الوجود، وهي في تصور الغزالي وأعمدة التصوف السني زندقة وكفر، ولقد تحدث الغزالي عن سبب تأليفه هذا الكتاب، وتحدث في الوقت نفسه عن كتابين آخرين له، أولهما (إحياء علوم الدين) وثانيهما (القربة إلى الله تعالى) ولكن الخلل - في صورته - أن ذينك الكتابين وخاصة الأول وهو (الإحياء) احتوى على (دقائق من العلوم اعتاصت على أفهام العامة، فقدحوا فيها، وخاضوا فيما لم يحسنوا منها"⁹⁶.

ثم قال وهو يتحدث عن هذا الكتاب: "فابتهلت إلى من بيده الخلق والأمر أن يوقفني لتصنيف كتاب يقع عليه الإجماع، ويحصل بقراءته الانتفاع، فأجابني إلى ذلك الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وأطلعني على أسرار ذلك، وألهمني فيه ترتيباً عجيباً لم أذكره في المصنفات التي تقدمت في أسرار معاملات الدين، وهو الذي أنا له واصف"⁹⁷.

ولا شك أن الغزالي في هذا الكتاب أفضل حالاً في كتبه الأخرى وخاصة (إحياء علوم الدين)، لأن نقد العلماء كان أكثره موجهاً إلى (الإحياء) دون (منهاج العابدين)، لأن الثاني كان قريباً إلى كتب السلف في الزهد والرقائق، حيث فيه الآيات والأحاديث المعقولة والآثار المقبولة، والنكت السليمة، ولا يخلو كتاب من نقد وملاحظات، ولكن عند المقارنة نجد أن هذا الكتاب هو الأفضل من بين كتبه العديدة في هذا المجال، ولقد حاول الغزالي أن يقع على كتابه هذا الإجماع، وهذا لن يحصل البتة، بل ربما تحقق الانتفاع فقط، لأن الأول لم يتحقق لأكثر علماء الإسلام، فكيف يتحقق للغزالي وهو قليل البضاعة في علم الحديث كما قال عن نفسه.

والذي يبدو من كتابه هذا أنه غير مساره ومنهجه، حيث يحاول في نهاية عمره الاقتراب من السنة، والتزود بهذا العلم الشريف، لأنه هو الأساس للعودة إلى مذهب السلف الصالح، ولقد رأى مصير الذين سبقوه، وخاصة مصير شيخه الجويني وغيره، فلم الإصرار في المضي على هذا الطريق، وقد ندم السالكون فيه، وتبرأوا منه، وعادوا إلى ما كان عليه السابقون الأوائل، وخاصة طريقة الباقلاني والبيهقي وابن فورك والأسفرايني، بل طريقة شيخ المدرسة الأشعرية أبي الحسن الأشعري، الذي قال في آخر كتبه: "قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل، وبسنة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان

⁹⁶ الغزالي: منهاج العابدين إلى رب العالمين (السعودية، دار المنهاج، ط4، 1432هـ، 2011م) ص37.

⁹⁷ الغزالي: منهاج العابدين إلى رب العالمين ص 37.

يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل⁹⁸.
 ليس للغزالي كتاب يصرح بعودته إلى طريقة السنة، ولعله لم تتح له فرصة ذلك، ولكننا نملك أدلة تؤيد هذه الحقيقة، لقد ذكرنا سابقاً أن الغزالي يقطع في أحقية مذهب السلف في الجانب العقدي، وأنه لا مناص من اتباعه واقتفائه وسلوكه، حيث يقول: "اعلم أن الحق الصريح الذي لا مرأى فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف"⁹⁹، ولهذا نراه في آخر حياته مهتماً جداً بقراءة الأحاديث النبوية وبالأخص صحيح البخاري¹⁰⁰. لأن من شعار السلف الاهتمام بالأحاديث النبوية وخاصة كتب الصحاح، فشعر الغزالي بالاعتزاز في عالم السنة النبوية، فأراد أن يخرج منه سليماً، بعد أن أفنى عمره في الكلام والفلسفة والتصوف، يقول ابن تيمية الحراني: "ولهذا تجد أبا حامد- مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة، وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف- ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف، ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف"¹⁰¹. لكن ابن تيمية الحراني يعترف بأن الغزالي بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث، ومات وهو يشغل في صحيح البخاري¹⁰². بل قيل: مات وصحيح البخاري على صدره¹⁰³. ويقول ابن كثير عنه: "ويقال إنه مال في آخر عمره إلى سماع الحديث، والتحفظ للصحيحين"¹⁰⁴.

الخاتمة

هذه التحولات الفكرية والتقلبات المنهجية للغزالي دليل على عظمة فكره، وقوة عقله، وسلامة طويته، ونقاء نيته، فهو لم يتحول من طور إلى طور إلى بعد قناعة ودراسة وتعمق وتفكر، وخاصة أن للغزالي منهجا فكريا فريدا يبدأ بالشك أولاً، حيث يقول: "من لم يشك، لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة والضلال، ولا خلاص للإنسان إلا في الاستقلال"¹⁰⁵.

⁹⁸ الأشعري، أبو الحسن: الإبانة عن أصول الديانة تحقيق: فوقية حسين محمود(القاهرة، دار الأنصار، ط1، 1397هـ) ص20.

⁹⁹ الغزالي: إجماع العوام عن علم الكلام ص45.

¹⁰⁰ الشيرازي: طبقات الفقهاء تحقيق: الحافظ عبد العليم خان (بيروت، عالم الكتب، ط1، 1407هـ) 239/1.

¹⁰¹ ابن تيمية الحراني: درء تعارض العقل والنقل 162/1.

¹⁰² المصدر السابق والصفحة نفسها.

¹⁰³ ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية (بيروت، المكتبة الإسلامية، ط1، 1391هـ) 227/1.

¹⁰⁴ ابن كثير: البداية والنهاية (بيروت، مكتبة المعارف، د. ط1) 457/7.

¹⁰⁵ الغزالي: ميزان العمل (القاهرة، د. ط1، 1926م) ص116. نقلا عن عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة 83/2.

وهذا المنهج دفعه إلى التشكيك في كل شيء، لأن ذلك سيدفعه إلى التفكير والبحث والتفتيش، عله يصل إلى الحقيقة، ولعل البعض يتصور هذا التحول من الغزالي عيباً أو خللاً في المنهج، ليس الأمر كذلك إطلاقاً، فلولا هذا التحول لما ملأ الغزالي الساحة الفكرية والفلسفية جدالاً ونقاشاً وحواراً وردوداً، ولما ملأ المكتبات العلمية هذا الكم الضخم من الرسائل والمؤلفات، وهذا التراث الثر بغثه وسمينه الذي تركه الغزالي دفع كثيراً من العلماء إلى الانشغال به رداً وتحقيقاً ونقداً ونقضاً وشرحاً وتفسيراً.

لقد قدم الغزالي الكثير في مجالات عديدة، بدأ بمجال الفقه وأصوله، ثم بعلم الكلام والفلسفة، وكذلك بالرد على المقلدة، وأعلن حرباً على الباطنية، واستقر في نهاية الأمر في عزلة غربية، وخلوة مع ربه، عله يلقى راحة بال، وطمأنينة نفس، لكنه بعد هذه العزلة الطويلة عاد إلى التدريس وطلب العلم، وألف كتاباً في هذا المجال، وأخيراً انشغل بالحديث النبوي، ومات وصحيح البخاري على صدره، مقتنياً طريقة السلف الصالح.